دور الأداء الصوتي (الكلامي) في التبليغ والتواصل عند العرب القدامى (الجهارة)

د. بلقاسم بلعرج
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة عنابة

ملخص: تتناول هذه الدّراسة سمة من سمات الأداء الكلامي عند العرب القدامى، وهي الجهارة، وتبيّن أنهم أعجبوا بجهارة الصوت ـ وكذلك وضوحه ـ واهتمّوا بها أيّما اهتمام، حتى صارت جزءا من ثقافتهم في عملية الاتصال والتّواصل، بل ومن السّمات الشّخصية والنفسية والاجتماعية للمتكلم، رجلا كان أم امرأة؛ بمعنى أنها وسيلة حياة، ومن تمام الإكرام والضّيافة. وقد ربطوها بالبيان والتّبيين وقوّة الدّلالة فكانت منبع فخر وصفة جمال؛ بها يعلو قدر المتكلم وقيمته، كما عُدّت أساس سيادة وشرف؛ بها يغالبون الأمم الأخرى وربما يتغلبون. ولاشك في أن لعاملي البيئة والأمّية دخلا في ذلك؛ فامتداد الصحراء وسعة الأفق أحوجهم أكثر إلى جهارة الصوت ووضوحه، كما أن الأمّية تدفع صاحبها إلى الاعتماد على الرّواية والسّماع عَوض القرطاس والقلم، حتى قيل: إن العرب أعطوا الكلام ومُنعوا الطعام.

Résumé: La présente étude aborde l'une des caractéristiques de la performance verbale chez les arabes anciens qui est la sonorité et tente de démontrer l'admiration que ceux-ci lui vouaient et l'intérêt qu'ils lui témoignaient, a un point tel qu'elle était devenue partie intégrante de leur culture lors du processus d'échange et de communication. En outre, elle était l'une des composantes psychosociales de la personnalité de l'orateur, homme ou femme, dans le sens où elle était un mode de vie et un signe incontesté de déférence et d'hospitalité. La sonorité était alors associée à l'éloquence, la précision, et tenait de l'exploit sémantique, source de fierté et critère absolu de beauté. Cette qualité assurait à l'orateur une position privilégiée et lui procurait honneur et suprématie. Grâce à elle, les arabes pouvaient se mesurer aux autres nations, voire les dominer. En fait, les facteurs de l'environnement et de l'illettrisme contribuaient sans doute à la prépondérance de l'oral. En effet, l'immensité du désert et l'ouverture de l'horizon rendaient la sonorité et la clarté de la voix indispensables. Par ailleurs, l'analphabétisme rend l'illettré tributaire de l'audition et de l'oralité au détriment de la plume et du papier : ne dit-on pas que les arabes sont peut être dépourvus de nourriture mais guère de discours avec fioritures ?

لا اختلاف في أن لكل لغة بيئتها التي نشأت ونمت في رحابها، وناطقيها الذين تأثرت – وأثرت- بحياتهم وبما يحيط بهم.

واللغة العربية نموذج صادق لبيئتها، فأنت تكاد ترى طبيعة البلاد في ألفاظها وتلمس أحاسيس العرب في كلماتها، كما أن صدى حياتهم العقلية والاجتماعية يتردد في أساليبها [1].

وقد ارتبط ظهور الثقافة بظهور الرموز والعلامات التي تكون نظام اللغة، وأن الإنسان عرف الثقافة عندما عرف كيف يتكلم وكيف يتواصل، ومن ثم صارت اللغة هي الذاكرة الجماعية والوعاء الحقيقي للثقافة وأنها أهم المظاهر التي تميز مجتمعا من غيره من المجتمعات [2]. وما دامت اللغة مرتبطة بأهم عضو في الجهاز النطقي للإنسان وهو اللسان، سميت باسمه، قال الله تعالى:**{ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم}**[3] وقال:**{ ومن آياته خلقُ السماوات والأرض واختلافُ ألسنتكم وألوانكم }**[4] ولأهمية اللسان عند العرب، اهتموا به وبالغوا، وطالبوا بالعمل على رياضته حتى يرق ويلين، ولو بقي بدون ذلك؛ خسأ [5] وغلظ كما يقول الجاحظ [6].

ولهم في الأشعار والأنثار مدائح للسان [7]، بل حصروا الجمال فيه، فقد روي أن العباس بن عبد المطلب قال للنبي (ص):" يا رسول الله فيم الجمال؟ قال: في اللسان"، وقال " خالد بن صفوان": ما الإنسان لولا اللسان ، إلا صورة ممثلة أو بهيمة مهملة.وقال صاحب المنطق: حدّ الإنسان الحي، الناطق المبين [8].

ويقال:"عقل الرجل مدفون تحت لسانه"[9].

وقال "يونس بن حبيب": "ليس لعيّ مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء ولو حك بيافوخه أعنان السماء"[1].

---

1 - ينظر: د/ محمد محمود محمدين، رأي في تسمية الحركة العربية وأسباب هذه الحركة، مجلة اللسان العربي، مجلد18/ 1980، 1/166،165.

2 - ينظر: د/ كريم زكي حسام الدين، الدلالة الصوتية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط/1، 1992، القاهرة، مصر، ص، 111.

3 - إبراهيم 4/14.

4 - الروم22/30.

5 - أي يبس وصلب.

6- ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت (دط)، 1/272 .

7- نفسه، 1/166.

8- نفسه، 1/170، وابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1925، 2/168.

9- نفسه،1/ 171، وعيون الأخبار،2/168.

وهناك أمثلة كثيرة تبين مدى اهتمام العرب برياضة اللسان نذكر منها على سبيل المثال ما جاء في البيان والتبيين للجاحظ، يقول:" وإذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره، وتبلدت نفسه وفسد حسه، وكانوا يروّون صبيانهم الأرجاز ويعلّمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب، لأن ذلك يفتق اللهاة ويفتح الجرم[2] (أي الحلق).

وما جاء في الخصائص" لابن جني"، وهو يشرح بيتين من الشعر:[الطويل]

"ولمَّا قضَيْنا مِنْ مِنىً كُلَّ حَاجةٍ ومَسَّحَ بالأرْكانِ مَنْ هو مَاسِحُ

أخذْنا بأطرَافِ الحَدِيثِ بَيْنَنا وسَالت بأعْنَاقِ المَطِيِّ الأباطِحُ

"..... وذلك أنهم قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الأليفين والفكاهة بجمع شمل المتواصلين" [3]

وهو ما يؤكد قولا مأثورا في العرب، أنها أعطيت الكلام ومُنعت الطعام[4]. وقد وصفهم القرآن في أكثر من موضع ببلاغة المنطق، واستمالة الأسماع بحسن ألسنتهم، قال تعالى:**{ وإنْ يقولوا، تسْمَعْ لِقَوْلِهم}**[5] وقال: **{وَ مِنَ النَّاس مَنْ يُعجبُكَ قَوْلُه في الحياة الدنيا}**[6]، وفي نقيض ذلك وصفهم باللدد عند الخصومة، قال تعالى: **{فإذا ذهب الخَوْفُ سَلقوُكم بألسِنةٍ حِدادٍ}**[7].

وقال:**{وتُنْذِرَ به قَوْماً لداً}**[8]، وقال:**{ ويُشْهدُ الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام}**[9].

ولشدة احتفائهم به نجد أن قيمة الرجل عندهم تعلو بقدر ما يقول لا بقدر ما يفعل[10]، وهي صفة ذمّها القرآن، يقول الله تعالى:**{**يا أيُّها الذين آمَنُوا لِمَ تَقولونَ ما لا تَفْعَلون

1- نفسه 77/1.
2- نفسه،272/1.
3- ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 219/1،218.
4- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، صحّحه وضبطه وشرح غريبه، أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة (دت)، بيروت، لبنان، 69/3.
5- المنافقون63 /4.
6- البقرة 204/2.
7- الأحزاب19/33.
8- مريم 19 /97.
9- البقرة 2/ 204.
10- ينظر: كريم زكي حسام الدين، السابق، ص،112.

كَبُرَ مَقْتاً عند الله أنْ تقولوا ما لا تَفْعَلونَ}[1]، وذمّها الإنسان كذلك، فقد أنشد "الأصمعي" "للمعكبر الضبي" يصف قوما يحسنون في القول ويسيئون في العمل، [الطويل]:

كُسَالى إذا لاقَيْتَهُمْ غيْرَ مَنْطِقٍ يُلْهَى به المَحْروبُ وهو عناءُ [2].

لقد كانت العرب أمة صوتية[3] - إن صحّ هذا الوصف - عمدتهم في ذلك الأذن واللسان، ولا أدلُّ على ذلك من أنّهم جعلوا الكلام الذي أعطوه وحيا أوحي إليهم، وإلهاما ألهموه، على ما ورد عن "الخليل وابن فارس"[4]، فهو عندهم "وسيلة حياة، ومنبع فخر وصائن، وأساس سيادة وشرف، وليس للعربي في هذه البيئة الجافة القاسية العارية عن الحضارة إلا العِرض والفخر والسيادة والشرف، وهذه هي الأسس المعنوية للحياة نفسها[5].

وقد راعوا في عملية الأداء الكلامي ثلاث سمات[6] وهي:

1. الجهارة: أي ارتفاع الصوت في الأداء.
2. الفصاحة: أي الوضوح الصوتي في الأداء.
3. الإيقاع: أي التناسق الصوتي في الأداء.

ولا شك في أن لمناخ الصحراء وتضاريسها دورا هاما ساعد على شحذ آذانهم وجعلها أكثر حساسية وأقدر على تمييز أصوات الطبيعة بعضها من بعض واستعذاب الحسن والنفور من السيئ، وبالنظر إلى امتداد الصحراء وسعة الأفق كانت الحاجة ماسة أكثر إلى جهارة الصوت ووضوحه. بالإضافة إلى أنها أمية تعتمد على الرواية في نقل العلوم والمعارف المتمثلة في الشعر والأمثال والحكم والأقوال المأثورة ... أي أنها تعتمد على السمع الذي يعوض القلم والقرطاس حينئذ. كما أنّهم يطربون للأصوات الجميلة ويستجيبون لها إيقاعا وجهارة ووضوحا، ولهذا نجد في الأصول

1- الصف61/ 3،2.
2- ينظر: البيان والتبيين،9/1.
3- ينظر: كريم زكي حسام الدين، السابق، ص، 113.
4- ينظر: محمد عيد، الرواية والاستشهاد باللغة، عالم الكتب، القاهرة، (دط)،1976، ص، 6.
5- المرجع نفسه، ص، 5.
6- ينظر : كريم زكي حسام الدين، السابق، ص، 113.

أن السماع مقدم على القياس لأن علوم القرآن والحديث واللغة والنحو تقوم على الرواية لا الدراية وعلى البيان لا البرهان[1].

ومن الدلائل القاطعة على دور الصوت وأهميته ما ورد في القرآن الكريم بشأن "إبليس" الذي يضل الناس ويغويهم مستعينا بالصوت، قال الله تعالى:**{ واستَفْزِزْ مَنِ استَطَعْتَ مِنْهم بِصَوْتِكَ وأَجْلِب عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ}**[2].

وقد فسّر "الزمخشري" الآية، يقول:"هو كلام ورد مورد التمثيل مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنده من خيّالة ورجالة، حتى استأصلهم، وقيل بصوته، بدعائه إلى الشر، وخيله ورجله كل راكب وماش من أهل العبث"[3].

ويقول "الطاهر بن عاشور" في تفسيرها:"والاستفزاز طلب الفز، وهو الخفة والانزعاج وترك التثاقل، والسين والتاء فيه للجعل الناشئ عن شدة الطلب والحث الذي هو أصل معنى السين والتاء، أي استخفهم وأزعجهم، والصوت يطلق على الكلام كثيرا، لأنّ الكلام صوت من الفم واستعير هنا لإلقاء الوسوسة في نفوس الناس (...) والإجلاب، جمع الجيش وسوقه. مشتق من الجلبة (...)وهي الصياح"[4].

وكما مدحوا الرجل بجمال اللسان، فإنّهم قد مدحوه بسعة الشدق أو كبره وببعد الصوت وقوته وقدرته على بلوغ الأسماع من مكان بعيد، ونقيض ذلك أنّهم ذمّوه بأته ضئيل الصوت، كما ذمّوه بضيق الشدق أو صغره.[5] وسئل أعرابي عن الجمال، فأجاب: الجمال، طول القامة وضخم الهامة ورحب الشدق وبعد الصوت.[6]

والأمثلة كثيرة من هذا القبيل ذكرها "الجاحظ" [7]، ويضيق المقام هنا بعرضها كلها، ويكفي الاستشهاد ببعضها توكيدا لذلك، منه قول "العجير السلولي" في شدة الصوت: [الطويل]

1- نفسه، ص، ن.
2- الإسراء 17 / 64.
3- الزمخشري، الكشاف، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، (دت)، 456/2.
4- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، والمؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، الجزائر، 1984، 153/15.
5- ينظر: البيان والتبيين، 120/1، 121 والدلالة الصوتية، ص، 114.
6- نفسه121/1، والدلالة الصوتية، ص، 114.
7- نفسه، 120/1 وما بعدها.

جَهيرٌ مُمْتد العَنانِ مُناقِل بَصيرُ بعَوْراتِ الكلام خَبيرُ

وقول الشاعر في "عمرو بن سعيد الأشدق": [الطويل]

تشَادق حتّى مَالَ بالقوْلِ شِدْقهُ وكلُّ خطيب لا أبا لكَ أشْدَقُ

وقول "شبّة بن عِقال"[1] في تفضيل الجهارة في الخطب ومدحها:[الطويل]

ألا لَيْتَ أمَّ الجَهْم واللهُ سامعٌ ترى حيث كانت بالعِراق مَقامي

عشية بَدَّ الناسَ جهري ومنطقي وبدَّ كلام الناطقينَ كلامي[2]

وممن عرفوا بجهارة صوتهم ومدحوا بذلك وكان تأثيرهم على أسماع العامة ونفوسها،" العباس بن عبد المطلب"، فقد كان جهير الصوت، ونفع الله به المسلمين يوم "حنين"، حين تفرّق الناس عن رسول الله (صلعم)، فنادى العباس: "يا أصحاب سورة البقرة [3]، هذا رسول الله ، فتراجع القوم وأنزل الله –عزّ وجلّ- النصر وأتى بالفتح"[4] . وكان أبو عروة السبّاع " يصيح بالسَّبع وهو يحمل الشاة فيخليها ويذهب هاربا، فضرب به "النابغة الجعدي" المثل: [المنسرح]

وَأزْجُرُ الكاشِحَ العَدُوَّ إذا اغْـ تابَكَ عِنْدي زَجْراً على أضَم[5]

زَجْرَ أبي عُرْوَةَ السِّباعَ إذا شْفَقَ أن يَلْتبسْنَ بالغنَم

و"شبيب بن يزيد بن نعيم الخارجي" الذي كان يصيح في جنبات الجيش إذا أتاه، فلا يلوي أحد على أحد، فقيل فيه: [البسيط]

إنْ صَاحَ يَوْماً حَسِبْتَ الصَّخْرَ مُنْحَدِراً والرّيحَ عاصِفةً والمَوْجَ يَلْتطِمُ[6]

ولم تقف المسألة عند هذا الحد بل صارت قوة الصوت وجهارته في ثقافة العرب سلاحا قويا يستعمل ضد الخصوم والأعداء ناهيك عن الأهل والأصدقاء، كما وظف ضمن الموضوعات المتداولة في الصراع المحتدم بين العرب والعجم.[1].

---

1 – شبة بن عقال المجاشعي، من مجاشع رهط الفرزدق وهو زوج (جعثن) أخت الفرزدق. ينظر هامش البيان والتبيين 123/1.

2- البيان والتبيين123/1،121، 127، الدلالة الصوتية، ص، 115،114.

3- والمعروف: "يا أصحاب السمرة" والسمرة هي الشجرة التي تمت عندها بيعة الرضوان، ينظر: الهامش2، البيان والتبيين .123/1.

4 - ينظر : البيان والتبيين123/1، والدلالة الصوتية، ص، 115، والكشاف،555/3.

5- الأضَمُ: الغضب.

6- ينظر: البيان والتبيين، 129/1،128.

من ذلك ما رواه "الجاحظ" من مطاعن الشعوبية على خطباء العرب وبلغائهم "... ولطول اعتيادكم لمخالطة الإبل جفا كلامكم، وغلظت مخارج أصواتكم حتى كأنكم إذا كلمتم الجلساء إنما تخاطبون الصّمان"[2].

وعلى الرغم من إعجاب العرب الأوائل بجهارة الصوت ووضوحه حتى صار سمة من سمات ثقافتهم في عملية التواصل أو الأداء الكلامي، فإنه لما جاء الإسلام محا بعض الصفات والعادات السيئة وأبطلها وأبقى على بعضها، وهذب بعضها الآخر، من ذلك تهذيب السلوك الكلامي الذي نقرؤه على لسان " لقمان الحكيم" وهو يوصي ابنه ويعضه:**{.....واقصِدْ في مَشْيِكَ واغْضُضْ من صَوْتِك إنّ أنْكَرَ الأصْوات لصَوْتُ الحَمير}**[3].

يفسر "أبو حيان" هذه الآية يقول:"... ولما نهاه عن الخلق الذميم أمره بالخلق الكريم، وهو القصد في المشي بحيث لا يبطئ كما يفعل المتنامسون [4] والمتعاجبون يتباطؤون في نقل خطواتهم المتنامين للرياء. والمتعاجب للترفع، ولا يسرع كما يفعل الخرق المتهور (...) والغض من الصوت: التنقيص من رفعه وجهارته، والغض: رد طموح الشيء كالصوت والنظر والزمام، وكانت العرب تفتخر بجهارة الصوت وتمدح به في الجاهلية (...) وغض الصوت أوفر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه(...) والأصوات أصوات الحيوان كلها، وأنكر جماعة للمذام اللاحقة للأصوات، والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة، شبه الرافعون أصواتهم بالحمير، وأصواتهم بالنهاق، ولم يأت بأداة التشبيه بل أخرج مخرج الاستعارة، وهذه أقصى مبالغة في الذم والتنفير عن رفع الصوت(...) وقال "الحسن": كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات، فرد عليهم بأنه لو كان خيرا فضل به الحمير (...) ورفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة، وربما يخرج الغشاء الذي هو داخل الأذن، وقيل (أقصد في مشيك) إشارة إلى الأفعال و(اغضض من صوتك) إشارة إلى الأقوال، فنبه على التوسط في الأفعال وعلى الإقلال من فضول الكلام"[5].

1- ينظر الدلالة الصوتية، ص، 116. والكشاف،555/3.

2- ينظر: البيان والتبيين14/3، والدلالة الصوتية، ص،116،117.

3- لقمان 32/ 19.

4- التنميس: التبليس، وما تُمِّسَ به من الاحتيال.

5- أبو حيان التوحيدي، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق، الشيخ أحمد عادل عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1/ 1993، 184/7،183، وينظر، الدلالة الصوتية، ص، 117،118.

وما نقرؤه كذلك في سورة الحجرات من قوله تعالى:**{ يا أيّها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صَوْت النَّبيّ ولا تَجْهَروا له بالقَوْل كَجَهر بعْضِكُم لِبَعْض أنْ تَحْبَط أعْمالكُم وأنتم لا تَشْعُرون. إنَّ الذين يَغضُّون أصْواتهُم عند رسول الله أُولَئكَ الذين اِمْتحَنَ اللهُ قلوبَهُم للتقوى لهَم مَغفِرَة وأجْر عظِيم. إنَّ الذين يُنادُونكَ مِنْ وَراءِ الحُجُرَات أكْثرُهُمْ لا يَعْقِلونَ، وَلَوْ أنَّهُمْ صَبَرُوا حتى تَخْرُجَ إليْهم لكانَ خَيْراً لَهُم والله غفورٌ رَحِيمٌ }**[1].

من بين ما يقول "الزمخشري" في تفسير الآيات:"والمراد بقوله:**{لا ترفعوا أصواتكم فوق أصوات النبي }** أته إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عاليا لكلامكم وجهره باهرا لجهركم (...) لا أن تغمروا صوته بلغطكم وتبهروا منطقه بصخبكم. وبقوله:**{ ولا تجهروا له بالقول}** أتكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم ألا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم وأن تتعمّدوا في مخاطبته القول البين المقرّب من الهمس الذي يضاد الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم"[2].

ويرى "أبو حيان" أن الآية الأولى في هذه الآيات نزلت بسبب عادة الأعراب من الجفاء وعلو الصوت، فأمرهم الله تعالى بألا يرفعوا أصواتهم إذا نطقوا ولا يجهروا إذا كلموا الرسول (ص)، لأن رتبة النبوة والرسالة يجب أن توقر وتجلّ ولا يكون الكلام مع الرسول (ص) كالكلام مع غيره.[3]

ويذهب "الفخر الرازي" إلى أن رفع الصوت دليل قلة الاحتشام وترك الاحترام، لذا لزم ألا يرفعوا كلامهم على كلام النبي (ص) في الخطاب، لأن خفض الصوت لا يكون إلا للاحترام وإظهار الاحتشام، ومن بلغ احترامه إلى حيث تنخفض الأصوات عنده من هيبته وعلو مرتبته لا يكثر عنده الكلام ولا يرجع المتكلم معه في الخطاب[4] إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي يذم فيها رفع الصوت سواء في المواقف أو في الأوقات نحو حضور الجنائز، وفي الليل وفي العبادة عند الصلاة والدعاء، قال الله تعالى:**{ وَلا تَجْهَرْ بصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بهَا وَابْتغ بَيْنَ ذلِكَ**

1- الحجرات 49 / 5،4،3،2.
2- الكشاف554/3.
3- ينظر: تفسير البحر المحيط، 105/8.
4- الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3(دت)، 112،113/28.

سَبيلا}[1]. ولم يكن الإسلام مهتما بتهذيب السلوك الفعلي والكلامي للرجل فحسب بل اهتم به كذلك بالنسبة إلى المرأة المسلمة، ومن أمثلة تهذيب السلوك القولي، قوله تعالى:**{ فلا تَخْضَعْنَ بالقول فيَطمَعَ الذي في قلبهِ مَرَضُ وقلنَ قولاً مَعْرُوفاً }**[2].

أي "... فلا تجبن بقولكن خاضعا، أي لينا خنثا مثل كلام المريدات والمومسات {فيطمع الذي في قلبه مرض} أي ريبة وفجور، وقرئ بالجزم عطفا على محل فعل النهي على أنّهن نهين عن الخضوع بالقول، ونهي مريض القلب عن الطمع، كأنه قيل: لا تخضعن فلا يطمع (...) {قولا معروفا} بعيدا من طمع المريب يجد خشونة من غير تخنيث، أو قولا حسنا مع كونه خشنا "[3].

وأورد "الجاحظ" في باب "ما قالوا فيه من الحديث الحسن" أبياتا " لبشار بن برد"، نخال بيتين منها ترجمة لمعنى الآية المذكورة آنفا، يقول "بشار": [الكامل]

أتسٌ غرَائرُ ما هَمَمْنَ بريبَةٍ كَظِبَاءِ مَكّةَ صَيْدُهُنَّ حَرَامَ

يُحْسَبْنَ من لِينِ الحَدِيثِ زوانيا وَيَصُدُّهُنَّ عن الخنا الإسلامُ [4]

و"لابن عباس" كلام في هذا الموضوع، يقول:" المرأة تندب إذا خالطت الأجانب عليها بالمصاهرة إلى الغلظة في القول من غير رفع الصوت، فإنّها مأمورة بخفض الكلام"[5].

أما أمثال تهذيب السلوك الفعلي أو الجسمي، فقوله تعالى:**{ ولا يَضْرِبْنَ بأرْجُلهنَ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زينتِهنَّ}**[6].

وله – مثلما يلاحظ من الآية- علاقة بدلالة الصوت وتأثيره، فقد ذهب المفسرون إلى أن المرأة كانت تضرب برجلها ليسمع خلخالها فيعلم أنّها ذات خلخال، وربما ضربت إحدى رجليها بالأخرى إظهارا بأنّها ذات خلخالين ولذلك وقع وتأثير في نفس السامع ولعلّه يثير شهوته ويصير ذلك داعية له زائدة في مشاهدتها ولذا

1- الإسراء 17 / 110.
2- الأحزاب 33 / 32.
3- ينظر الكشاف، 260/3، والبحر المحيط، 222/7، والتحرير والتنوير، 8/22.
4- بشار بن برد، الديوان، تحقيق ، محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، 1976، 212/4، وينظر: البيان والتبيين276/1.
5- ينظر: البحر المحيط223/7، والدلالة الصوتية، ص، 124.
6- النور 24/ 31.

فالنساء " إذا نهين عن إظهار صوت الحلي بعدما نهين عن إظهار الحلي علم بذلك أن النهي عن إظهار مواضع الحلي أبلغ وأبلغ"[1].

وإذا كانت العرب تمدح الرجل بجهارة صوته وقوته ووضوحه، فإنّها تمدح المرأة بخفوت صوتها ورقته[2]، وقد تغنى الشعراء بذلك كثيرا، يقول"ذو الرمة": [الوافر]

رَخِيماتُ الكَلامِ مُبَطِناتٌ جَواعِلُ في البُرَى قصَباً خِذالا [3]

أي أنّهن يغضضن من أصواتهن ويخففنها إذا تكلمن.

ويقول متغزلا:[الطويل]

لها بَشَرٌ مِثلُ الحَرير ومَنْطِقٌ رَخِيمُ الحَواشي لا هُراءٌ ولا نزرُ[4]

ولا يخفى تأثير الكلام العذب الرقيق على قلب الرجل، فهو يشتهيه ويتمتع به، فيجد في نفسه حاجة تدفعه إلى مبادلة صاحبته كلاما بكلام وشعورا بشعور وفي ذلك من المتعة ما لا يخفى. يقول "بشار بن برد": [مجزوء الكامل]

كأنّ رَجْعَ حَدِيثِها قِطعُ الرّياض كُسِينَ زَهْرا

وكأنَّ تَحْتَ لِسانِها هاروُتَ يَنْفثُ فِيه سِحْرا [5]

ويقول "ابن الرومي":[الكامل]

وحَديثُها السِّحْرُ الحَلالُ ولوْ أنَّهُ لمْ يَجْنِ قتْلَ المُسْلِمِ المُتَحَرّز

---

[1]- ينظر: الكشاف62/3، 63، البحر المحيط414/6، التحرير والتنوير، 213/18، التفسير الكبير، 23/ 210،209.

[2]- نشير إلى أنه يوجد فرق – وهو طبيعي- بين صوت الرجل وصوت المرأة من حيث الشدة والقوة، وذلك أمر يعود إلى طبيعة الوترين الصوتيين لدى كل منهما.

[3]- ذو الرمة، الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تقديم، مجيد طراد، دار الكتاب العربي، ط/2، بيروت، لبنان، 1996، ص،514، والدلالة الصوتية، ص، 126.

[4]- ديوانه، ص، 208، والبيان والتبيين،276/1، وعيون الأخبار، المجلد الرابع، 83/10.

[5]- بشار بن برد، الديوان، 69/4، البيان والتبيين، 276/1.

إنْ طالَ لمَ يَملِكْ وإنْ هيَ أوْجَزَتْ وَدَّ المُحَدِّث أنها لمْ توُجز[1].

وورد عن "جران العَوْد": [2][الطويل]

فنِلنا سِقاطًا مـن حَدِيثٍ كَأنَّه جَنَى النحل أو أبْكارُ كَرْمٍ يُقطفُ

حَديث لوْ أنَّ البَقْلَ يُولى بِمِثْلِهِ زْها [3]البَقْلُ واخْضَرَّ العضاهُ[4] المُصنَّفُ

وفيما جاء عن "القطامي" أنّهن قد يقتلن الرجال بحديثهن، قوله:[البسيط]

وفي الخُدُور غُماماتٌ بَرَقْنَ لنا حَتّى تصَيَّدْننا من كُلّ مُصْطادِ

يَقْتُلْننا بحَدِيثٍ لَيْسَ يَعْلَمُهُ مَنْ يتَّقينَ ولا مَكْنوُنُهُ بادِ

فهُنَّ يَنبذْنَ[5] مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بهِ مَواقِعَ المَاءِ مِنْ ذِي الغُلّةِ[6] الصَّادي[7]

ومن هذه النصوص يتبين لنا ما للأريحية وحسن الأحدوثة من مكانة عند العرب فقد جعلوها من مفاخرهم. ولا عجب في ذلك، فهم أهل خيال ونفوس حساسة؛ قد تثيرهم للحرب كلمة تطعن في شرفهم أو كرمهم، أو وفائهم أو شجاعتهم، وقد تقعدهم. وكانوا أكثر ما يتأثرون من أقوال النساء مدحا أو ذما، فيبذلون ما في الوسع التماسا لثنائهن، وربما تعرّض بعضهم للقتل تفاديا لاستخفافهن.[8]

وفي مقابل هذا ، فإنّه كما يؤثر صوت المرأة على الرجل، فإن صوت الرجل يؤثر على المرأة كذلك. فقد روى "الزمخشري" عن "البعلبكي" –مؤذن الخليفة العباسي المنصور- الذي رجّع في آذانه في إحدى الأيام وكانت جارية " المنصور" ممسكة بإبريق ماء وتصب الماء على يديه، فلما سمعت صوت المؤذن ارتعدت فسقط الإبريق من يدها بسبب تأثير صوته عليها، فأهداها الخليفة للمؤذن قائلا له: خذها فهي لك ولا ترجّع هذا الترجيع[9].

1- ينظر: الدلالة الصوتية، ص، 127.
2- ينظر البيان والتبين، 281/1، 282.
3- بدا زهره،
4- العضاه، جمع عضة: وهي كل شجرة ذات شوك، إلا القتادة فإنها لا تسمى عضة.
5- أي: يلقين.
6- الغُلة- بضم الغين- والغليل: العطش الشديد.
7- الصادي: العطشان والاسم: الصدى.
8- ينظر: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، (دت) 586/2،577.
9- ينظر: الدلالة الصوتية، ص، 127.

ومن هذا القبيل قصة "الذلفاء" مع "سليمان بن عبد الملك" التي صارت إليه بعد وفاة أخيه "سعيد"، وانتقال الخلافة إليه، فقد روت كتب الأدب واللغة أن "سليمان بن عبد الملك" كان له مغنٍّ ونديم يدعى "سنان" به يأنس وإليه يسكن، فأنزله بقربه، وكان حسن الصوت، وفي ليلة من الليالي طلب منه جماعة من إخوانه أن يغنّيهم فرفع عقيرته[1] يتغنى بهذه الأبيات:[البسيط]

مَحْجوبَة سَمِعَتْ صَوْتِي فأرّقها مِن آخِرِ اللَيْلِ لمَّا طلّها السَّحَرُ

تثنى على الخدِّ منها من مُعَصْفرة والحَليُ بادٍ على لبّاتِها خصِرُ

في ليْلة التمَّ لا يدْري مضاجعها وَجْهُها عِنْدَهُ أبْهى أمِ القمَرُ؟

لمْ يَحْجبْ الصوتَ أحْراسٌ ولا غلقُ فدَمْعُها لِطروُق الصَوْتِ مُنْحَدِرُ

لوْ خُلِيَتْ لمَشَتْ نحْوي على قدَمٍ تَكادُ من لِينها للمَشي تنْفطِرُ

فسمعت "الذلفاء" صوت "سنان" فخرجت إلى وسط الدار تستمع فرأت أن الأوصاف التي ذكرت في الأبيات لا تنطبق إلا عليها فحرّك ذلك ساكنا في قلبها فهملت عيناها وعلا نشيجها، ولما افتقدها "سليمان" لم يجدها معه، فخرج إلى فناء الدار فرآها على تلك الحال فسألها: ما هذا يا ذلفاء؟ فقالت:[الطويل]

ألا رُبَّ صَـوْتٍ رائِع مِنْ مُشَوَّهٍ قبيح المُحَيَّا واضِع الأبِ والجَدِّ

يَرُوعُكَ مِنْهُ صَوْتُـهُ وَلعَلـَـهُ إلى أمَةٍ يُعْزى مَعاً وإلى عَبْدِ

فغضب "سليمان" وقال لها: دعيني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه خامر، وأرسل إلى "سنان"، فلما حضر بين يديه، عنّفه وقال له ألم أنهك عن مثل هذا؟ ويلك! أما علمت أن الرجل إذا تغنى أصغت المرأة إليه، وأن الحصان إذا صهل استودقت[2] له الفرس، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة، وأن التيس إذا نبَّ استحرمت له الشاة؟ إيّاك والعَوْد إلى ما كان منك فيطول غمُّك.[3]

وهكذا يتبيّن مما ذكر أن ثقافة العرب الأولين كانت ثقافة صوتية قوامها الأذن واللسان، ولا غرابة في قوم ديوانهم الشعر، بل ما ظنك بقوم أعطوا الكلام ومنعوا الطعام-مثل ما سبق ذكره-؟ وإذا كان الله تعالى قد أيّد بعض رسله بمعجزات يتحدون

1- أي رفع صوته بالغناء.
2- أي اشتهت.
3- ابن عبد ربه، العقد الفريد، شرحه وضبطه وصححه، أحمد أمين وإبراهيم الأبياري وعبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1982، 6/69،66.

بها أقوامهم في نفس ما اشتهروا به، فكانت معجزة "موسى" – عليه السلام- العصا التي تلقفت حبال السحرة وعصيَّهم في وقت اشتهروا فيه بالسحر.[1]

وكانت معجزة "عيسى" – عليه السلام- إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله في وقت اشتهر فيه الطب.

فإنه أيّد "محمدا " – عليه الصلاة والسلام- بمعجزة الكلام فتحداهم بها، قال الله تعالى:{ أَمْ يَقولونَ افتَراهُ، قُلْ فأتوا بسورة من مِثْلِه، وادعوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِنْ دون الله إنْ كنتُمْ صَادقينَ}[2]. وقال:**{فذكّر فما أنتَ بنِعْمةِ رَبّكَ بكاهِن ولا مَجنون، أم يقولون شاعر نتربّص به رَيْبَ المنون، قل تربّصوا إني معكم من المتربّصين}**[3]. وقال:**{ فليَأتوا بحَدِيثٍ مثله إنْ كانوا صَادقِينَ}**[4]. وقال: **{ إنَّهُ لقَوْلُ رسول كريم وما هو بقَوْلِ شاعر، قَليلا ما تُومنون، ولا بقول كَاهِنٍ، قَليلا ما تذكَّرون ، تَنْزيلٌ من رب العالمين}**[5].

ومنه صار اللسان ورياضة الكلام من مميزات العرب به يفخرون وبه يتغلبون على الأمم الأخرى.

وقد صوّر القرآن الكريم هذه الحقيقة في أكثر من موضع، من ذلك قوله تعالى:**{ ومِنَ الناس مَنْ يُعْجبُكَ قَوْلُهُ في الحياةِ الدُّنيا ويُشْهدُ اللهَ على ما في قلبه وهو ألدُّ الخِصام}**[6]. وقوله:**{ وإذا رَأيْتَهُم تُعْجبُكَ أجْسامُهُم وإنْ يَقولوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهم}**[7]. ولشدة احتفائهم به وتغلغله في حياتهم أنهم جعلوا "الحديث والبسط والتأنيس والتلقي بالبشر من حقوق القِرى ومن تمام الإكرام به، وقالوا: من تمام الضيافة الطلاقة عند أوّل وهلة، وإطالة الحديث عند المواكلة"[8].

بل جعلوا الحديث جانبا من القِرى، يقول "عروة بن الورد" [الطويل]:

لِحافِي لِحَافُ الضَّيفِ والبَيْتُ بَيْتُهُ ولَمْ يُلْهنِي عَنْهُ غَزالٌ مُقَنَّعُ

1- قال الله تعالى:{ فلمَّا ألقَوا سَحَروا أعْيُنَ الناس واستَرْهَبوهم وجاءوا بسحر عظيم} الأعراف 7 / 116.
2- يونس 38/10.
3- الطور52 / 29،30،31.
4- الطور 52/ 34
5- الحاقة 96 /40،41،42،43.
6- البقرة 2/ 204.
7- المنافقون 63 / 4.
8- البيان والتبيين 1/ 10.

أحَدِّثُهُ إنَّ الحَدِيثُ مِنَ القِــرى وتَعْلَمُ نفسي أنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ[1]

ويقول "الخزيمي": [الطويل]

أضاحِكُ ضَيفِي قبْلَ إنزالِ رَحْـلِـهِ ويُخصِبُ عِنْدي والمحَلَّ جَديبُ

وما الخِصْبُ للأضْيافِ أنْ يَكْثُرَ القِرى ولكِنما وَجْــهُ الكريمِ خصيبُ[2]

يتبيّن من هذه الدراسة أن عقلية العرب الأولين متجلية في لغتهم وأن ثقافتهم ثقافة صوتية، يؤدي فيها الصوت واللسان دورا هاما في حياتهم التواصلية – ولعل ذلك راجع إلى كونهم أمة أمية - سواء ما تعلق منه بالمنطوق أو بالمعقول، فبقدر ما اعتمدوا على ماهية القول اعتمدوا أكثر على كيفيته.

وكانت جهارة الصوت من بين السمات الشخصية والاجتماعية والنفسية للمتكلم، رجلا كان أم امرأة، فهم يسعون إلى تحقيقها في عملية الأداء الكلامي، وربطوها بالبيان والتبيين والدلالة والفصاحة، فكان الإفهام والتبليغ والفهم والتلقي.

يقول "صفي الدين الحلي":[الخفيف]

لغة تَنْفرُ المَسامِعُ مِنْـــها حينَ تُرْوَى وتَشْمَئِزُّ النُفوسُ

إنَّ خَيْرَ الألفاظِ ما طَرَبَ السّـ مِعُ منه وطَـابَ فيه الجليسُ

إنمـا هذه القـلـوبُ حَديدٌ ولذِيـذُ الألفـاظِ مَغناطِيسُ

---

[1]- وينسب البيتان إلى غيره، ينظر هامش 3، من البيان والتبيين 10/1، وهامش عيون الأخبار، 240/3.

[2]- المصدر نفسه،10/1، وعيون الأخبار،239/3.

مصادر الدراسة ومراجعها: ** المصحف الشريف، برواية ورش.

1. بشار بن برد، الديوان، تحقيق، محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.
2. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ت.
3. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار مكتبة الحياة، للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د،ت.
4. ابن جني، الخصائص، تحقيق، علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت
5. أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، 1993.
6. أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه، أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د،ت.
7. الرازي (الفخر)، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، ط/3، بيروت، لبنان، د،ت.
8. ذو الرمة، الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تقديم، مجيد طراد، دار الكتاب العربي، ط/2 بيروت، لبنان، 1996.
9. الزمخشري، الكشاف، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د،ت.
10. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، تونس 1984.
11. ابن عبد ربه، العقد الفريد، شرح وضبط وتصحيح، أحمد أمين وإبراهيم الأبياري، وعبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1982.
12. ابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1925.
13. كريم زكي حسام الدين، الدلالة الصوتية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة/ مصر، ط/ 1، 1992.
14. محمد عيد، الرواية والاستشهاد باللغة، عالم الكتب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط/ 1، 1976
15. محمد محمود محمدين، مجلة اللسان العربي، المجلد 1980/18.